القصص القرآني

سلسلة لقاءات قدمت في رمضان 1439 هـ

إبراهيم عليه السّلام

أ. أناهيد السميري

اللّقاء الرّابع

مدونة علم ينتفع به

www.tafaregdroos.blogspot.com

بسم الله الرّحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكن سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

http://tafaregdroos.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

- ✓ منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- ✓ هذه التّفاريغ من اجتهاد الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- ✓ الكمال لله عزّ وجلّ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

مقدّمة:

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين

أسأل الله عزّ وجلّ أن يجعلها ساعة مُباركة نتدارس فيها شيئا من آيات الله، نَزْدَادُ به إيمانًا، ونعرف به منّة الله علينا بهذا القرآن العظيم، ونجاهد فيه أنفسنا، ونُصلِح به اعتقادنا.

وقد كنّا بفضل الله قد اتّفقنا في هذا العام المُبارَك، عام ١٤٣٩ من الهجرة النّبويّة الشّريفة، أن نتدارس قصص الأنبياء، **لبناء اعتقادنا في الرُّسُلِ**، ولكي يكون هذا الشّأن، شأن الرّسل أمام أعيننا كالشّمس تامّ الوضوح، تمتلئ قلوبنا محبّة لهم بعد المعرفة بهم، وبعد معرفة المَنْزِلَةِ الّتي أنزلهم الله إيّاها، وابتدأنا بإبراهيم عليه السّلام لِمَا له من مكانة عظيمة عند ربّ العالمين، فهو أبُو الأنبياء، وفي ذرّيته كانت النّبوّة والكتاب.

وكنّا قد بدأنا بترتيب المُصْحَفِ في الخبر عنه، فقد ورد الخبر عنه كما مضى في سورة البقرة، وكان هذا الموطن أوّل موطن يُذكر فيه الخبر عن إبراهيم عليه السّلام، بأنّه عليه السّلام قد ابتلاه ربّه بكلمات فأتمّهنّ، وهذا مُجْمَلُ حال إبراهيم عليه السّلام أنّه ابْتُلِيَ بكلمات في خِلال حياته، فأتمّ هذه الكلمات، فما كان من ربّه الشَّكُور إلاّ أن جعله للنّاس إمامًا.

وهذا الأمر كنّا قد فهمناه الحمد لله وعرفناه من أوّل لقاء ابتدأنا به، وفهمنا ما قال ربّنا لنا من سبب منزلة إبراهيم، وهو أنّه أتمّ الكلمات الّتي ابْتُلِيَ بها.

فهو إبراهيم **{الَّذِي وَفَّىٰ}**[١] كما قال الله عزّ وجلّ في سورة النّجم، وهذا معنى الآية الّتي نكرّر سماعها في خلال نقاشنا لقصّة إبراهيم، كلّما ابتدأنا نناقش هذه القصّة نعيد على أنفسنا هذه الآية العظيمة:

{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}

تبيّن لنا إمامة إبراهيم عليه السّلام، ثمّ يأتي بعد ذلك كما مرّ معنا الخبر عن الابتلاءات الّتي أتمّها إبراهيم عليه السّلام، عن الكلمات الّتي ابْتُلِيَ بها، وهذه الكلمات يأتي سردها ليس بالتّرتيب التّاريخي، إنّما كلّ مرّة يأتي فيها الخبر عن ابتلاء لإبراهيم عليه السّلام إنّما يُناسب المَقام الّذي أتت القصّة شاهدًا عليه؛ كما مرّ معنا أنّ القَصَصَ القرآني إنّما يأتي شاهدًا على موضوع السّورة؛ ففي سورة البقرة أتى الخبر عن إبراهيم عليه السّلام في أثناء الكلام عن بني إسرائيل، ووعظهم بأن يتّبعوا أباهم الّذي

[١] [النجم: ٣٧]
[٢] [البقرة: ١٢٤]

هم في الحقيقة يعودون إليه كما يعود العرب إليه؛ فكان ٱلْمُتَصَوَّرُ أن يكونوا مُقْتَدِينَ به، خاصّة في شأن مثل شأن استقبال البيت، ومن ثمّ متابعة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولذَا فقد كنّا سمعنا هذه الآيات، وفهمنا الحمد لله مُجمل معناها.

{وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}[٣]

وعرفنا هنا أنّ المطلوب كان من إبراهيم عليه السّلام أن يبني البيت، وكان من آثار بناء البيت مقامه _ مقام إبراهيم عليه السّلام _ الّذي أُمر النّاس بعد ذلك أن يتّخذوه مصلّى، وأيضًا أُمِرَ بتطهيره؛ وأهمّ ما يُطَهَّرُ منه كما كرّرنا كثيرًا في لقائنا الماضي: **التّطهير من الشّرك وما يتبعه، ومن المعاصي.**

وكلّ هذا يكون شأنًا عامّا في البيت، وإذَا نظرنا للسّياق سيكون شأنًا خاصّا في الكلام عن المشركين، وعن اليهود الّذين دنّسوا دينهم بالشّرك والمعاصي.

الآيات:

يأتينا اليوم إن شاء الله آيات نستفتح بسماعها أولًا، ثم نبدأ بنقاشها بما تدلّ عليه من الخيرات في عقيدتنا والبركات فيها. الحمد لله الّذي جعل لنا من نَقْتَدِي به، ونسير وراءه، ويكون لنا سَلْوَى في ابتلاءاتنا وامتحاناتنا الّتي نُمْتَحَنُ فيها في الحياة:

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٤]

يأتي هنا الخبر عن حال بناء إبراهيم عليه السّلام للبيت، فيقول ربّ العالمين: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ} يعني يذكر بناءهما البيت، ورفعهما القواعد منه، ونلاحظ أنّ الخبر هنا أتى على الاستقبال، وهو يحكي الحالة الماضية، بمعنى أنّ إبراهيم رفع البيت وليس الآن يرفعه، ولكن من أجل استحضار هذه الصّورة أمام أعيننا، استحضار الشّيخ الكبير، وابنه يجلب الصّخر والحجارة، وإبراهيم عليه السّلام يضعها في مكانها؛ هذه الصّورة العظيمة الّتي فيها جهد، وابتلاء،

[٣] [البقرة: ١٢٥]

[٤] [البقرة: ١٢٦_١٢٩]

واختبار؛ كيف أنّ الله عزّ وجلّ أعانهما على هذا ابتداءً كما في سورة الحجّ حيث يقول الله عزّ وجلّ: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ} يعني اذْكُرْ ذلك الوقت العظيم، وَقْتَمَا بَوَّأَ الله، وَالتَّبْوِأَةُ من الإسكان، ولذلك الله عزّ وجلّ في سورة يوسف يقول: {وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ} [٦].

{وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ} يعني موضعه في أيّ مكان يكون، فدلّه الله على مقرّ البيت، فأعطاه الله مكانًا محدّدًا ليتّخذ فيه البيت ويبنيه، فمعنى ذلك أنّ الله عزّ وجلّ قد دلّ إبراهيم على مكان البيت، وامتثل إبراهيم أمر الله فبنى البيت حيث أمره ربّه.

فالموطن الآن الّذي في سورة البقرة، الخبر فيه عن رفع إبراهيم القواعد من البيت، المقصود به قواعد البيت: أُسسه، فدلّ الله إبراهيم عليه السّلام على مكان البيت، وأمره أن يرفع هذه القواعد.

قواعد البيت:

وهنا نقاش طويل عند المفسّرين، هل كان البيت موجودًا قبل إبراهيم عليه السّلام فأتى الطوفان فهدمه؟ ولهذا أتى إبراهيم عليه السّلام فبناه على القواعد الّتي كانت منذ زمن آدم عليه السّلام؟ أو أنّه أُنْشِأَ إِنْشَاءً في زمن إبراهيم عليه السّلام فكان أَوَّلَ وَضْعِهِ؟ على كلّ حال جائز أن يكون آدم هو من بناه ثمّ انهدم حتّى رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل، وجائز أن يكون الله عزّ وجلّ دلّه على البيت وأنّه لم يكن له بناء سابق، **ما عندنا خبر تقوم عليه الحجّة كما يقول الطّبري** فنسلّم له، ولا في مثل هذا يأتي الاستدلال والقياس؛ فالمقصود أنّ إبراهيم عليه السّلام وابنه إسماعيل رفعا البيت.

وقد مرّ معنا أنّ البخاري قد أخرج عن ابن عباس في حديث مجيء إبراهيم لتفقّد ابنه إسماعيل عليهما السّلام، أنّ إبراهيم عليه السّلام قال لابنه إسماعيل: ((يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا)) وأشار إلى مكانه، فهذا معناه أنّ الله عزّ وجلّ عرّفه تمامًا مكان البيت، فيقول ابن عبّاس: ((فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي،)) فهذه كانت

---

[٥] [الحجّ: ٢٦]

[٦] [يوسف: ٥٦]

[٧] قال الإمام الطبري رحمه الله بعد أن ذكر أقوالًا في ذلك: (والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن إبراهيم خليله أنه وابنه إسماعيل، رفعا القواعد من البيت الحرام. وجائز أن يكون ذلك قواعد بيت كان أهبطه مع آدم، فجعله مكان البيت الحرام الذي بمكة. وجائز أن يكون ذلك كان القبة التي ذكرها عطاء، مما أنشأه الله من زبد الماء. وجائز أن يكون كان ياقوتة أو درة أهبطا من السماء. وجائز أن يكون كان آدم بناه ثم انهدم، حتى رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل. ولا علم عندنا بأي ذلك كان من أي؛ لأن حقيقة ذلك لا تدرك إلا بخبر عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، بالنقل المستفيض. ولا خبر بذلك تقوم به الحجة فيجب التسليم لها، ولا هو – إذ لم يكن به خبر، على ما وصفنا – مما يدل عليه بالاستدلال والمقاييس، فيمثل بغيره، ويستنبط علمه من جهة الاجتهاد، فلا قول في ذلك هو أولى بالصواب مما قلنا. والله تعالى أعلم).

وظيفتهما، تقاسما العمل، هو يضع الحجارة بمعنى يبني بها البيت، وإسماعيل عليه السّلام يأتي بها، حتّى إذا انتهيا قاما ((حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ، جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولاَنِ :{رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ}، قَالَ: فَجَعَلاَ يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ البَيْتِ وَهُمَا يَقُولاَنِ :{رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ}))[٨]

معنى {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ}:

فأنت تصوّري هذا الحدث العظيم كيف يُتلى به إبراهيم عليه السّلام، يُؤمَرُ بهذا الأمر فيكون في خبرنا أوّل من طاف حول البيت، وقد بنى البيت عبادة وطاعة لربّ العالمين، ويقول: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ}

ولذلك يقول الشّيخ السّعدي: **(واذكر إبراهيم وإسماعيل، في حالة رفعهما القواعد من البيت الأساس، واستمرارهما على هذا العمل العظيم، وكيف كانت حالهما من الخوف والرّجاء، حتّى إنّهما مع هذا العمل دَعَوَا الله أن يتقبّل منهما عملهما، حتّى يحصل فيه النّفع العميم.)**[٩]

هنا فوائد جمّة في هذا الخبر خاصّة من القصّة:

- الامتثال لأمر الله، والمسارعة، والمبالغة في القيام بالعمل لأنّه أُمِرَ أَنْ يَرْفَعَ القواعد، فرفعها ثمّ زاد في رَفْعِهَا، وبالغ في ذلك طَاعَةً لِرَبِّهِ، وهو مع ذلك خائف من ألاّ يُقْبَلَ، فجمع بين الخوف والرّجاء.
- وعلما أنّ هذا العمل ليعُمَّ نَفْعُهُ لابدّ أن يَقْبَلَهُ ربُّهُمَا، فاعتنوا **بطلب القَبُولِ**، لأنّ الله إذا قبل من العبد العمل، أنزل عليه البركات، ونفعه هو به، ونفع من وراءه أيضًا به.

الله إذا قَبِل من العبد العمل ← أنزل عليه البركات

فلذا لنا في إبراهيم عليه السّلام قُدْوَة في أن نجمع في أعمالنا –الّتي نقوم بها طاعة لله، وتنفيذًا لأمر الله– بين الخوف والرجاء.

الخوف من أن لا نُقْبَلَ ← فَنُرَدُّ على أعقابنا

الرّجاء أن نُقْبَلَ ← فَتُضَاعَفُ درجاتنا، وَتَرْتَفِعُ أعمالنا وَتَزْكُوا نفوسنا

---

[٨] [صحيح البخاري _ كتاب أحاديث الأنبياء _ حديث رقم 3210]

[٩] تيسير الكريم الرّحمن _ عبد الرّحمن السّعدي _ تفسير الآية ١٢٧ سورة البقرة.

فالّذي يحمل الخوف والرّجاء يبقى ساعيًا في العمل، سائلًا الله أن يقبل منه عمله _ وهذا كثيرًا ما يغيب عنّا في طاعاتنا _ الله يغفر لنا هذا التّقصير الواقع منّا.

علامة خوف القلب و رجائه = (السعي في العمل + سؤال الله القبول)

لكن كلّما قرأنا هذه القصّة المباركة، وتذكّرنا حال إبراهيم عليه السّلام، وتذكّرنا شأنه عليه السّلام هو وابنه في العناية بامتثال أمر الله، وفي العناية بطلب القبول من الله، كان منّا السّير على منهجهم، فنطيع الله، ونطلب من الله أن يقبلنا.

ثم نلاحظ ما قالاه وهما يعرفان الله {رَبَّنَا} هذا الاسم العظيم الّذي ينادي به الأنبياء، الدّالّ على أنّهم عرفوا **أنّ ربّهم خصّهم بتربية زائدة عن تربية الخلق**، فإنّ الرّبّ سبحانه وتعالى:

- يربّي **عموم خلقه** بِنِعَمِهِ الدّنيويّة المشتركة.
- ويربّي **خصوص خلقه** بِنِعَمِهِ الدّينيّة الخاصّة.

فهم ينادون ربّهم كأنّهم يقولون: قد مننت علينا بتربية خاصّة، تقبّل منّا طاعاتنا الّتي هي في الحقيقة شُكْرًا على عطائك.

إنهما يسألان الله هذا السّؤال {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا} ويطلبان هذا الطّلب دون غيره رغم اجتهادهم وبذلهم، ويقرّران شأنًا عظيما {إِنَّكَ} يؤكّدان أنّ هذا وصفك، {إِنَّكَ أَنْتَ} وفي الجملة من المؤكّدات الشّيء العظيم، أنت ولا أحد غيرك له هذا الوصف الكامل، {السَّمِيعُ} الّذي وسع سمعه جميع الأصوات: أصوات الجهر، وأصوات السّرّ، فأنت السّميع لدعائنا، {العَلِيمُ} بنيّاتنا وهذا إنّما هو من فقههما؛ ففقه المرء أصله معرفة ربّه، ومعرفة كيف يعامل ربّه في كلّ شأن، وفي كلّ مقام بما يناسبه. فكأنّه مرّة أخرى يُقَالُ، وهذه الحكاية تُحْكَى لك: واذكر هذا الموقف العظيم، {وَإِذْ يَرْفَعُ} حِكَايَةُ حَالٍ مَاضِيَةٍ بِكَلاَمٍ مُسْتَقْبَلِيٍّ.

فكأنّه يُقَالُ: تصوّر وضعه أمام عينيك، وَأُمِرَ أن يَرْفَعَ القواعد الّتي هي مُثَبِّتَةٌ للبناء، هو وابنه؛ ونلحظ أنّ هذا التّعاون بينهما أثمر هذا البيت العظيم، وأثمر هذا اليقين والإيمان، وهذا الخوف والرّجاء، إلى أن وصلنا إلى {إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ} تسمع دعاءنا، وتضرّعنا، وتعلم ما في قلوبنا من الإخلاص، وترك الالتفات إلى أيّ أحد سواك؛ وأتت بكلّ هذه المُؤكّدات **لتدّل على حصر كمال السّمع والعلم في الله عزّ وجلّ**، فهو المختصّ دون غيره بكمال هذه الصّفات.

معنى (مُسْلِمَيْنِ لَكَ):

ونرى إبراهيم وإسماعيل يُكملان دعاءهما، بالدّعاء لأنفسهما، وذرّيّتهما بالإسلام، {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ}

فها هما قد أسلما، واستسلما، وبنيا البيت كما أُمِرُوا، فما الدّاعي لأن يدعوا بأن يكونَا مسلمين؟

الأمر ظاهر في كون أنّ الإنسان لا يمكنه أن يطلق حسن الظنّ في نفسه، وإنّما يبقى ليله ونهاره يطلب من ربّه أن يعينه على نفسه، وأن يهديه الصّراط المستقيم وأن يجعله مسلما، {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ} يعني نُسْلِمُ وجوهنا لك، مستسلمين لك، بمعنى خاضعين، مذعنين؛ وهذا موجود سابقًا الاستسلام، بمعنى: زدنا منه، زدنا إخلاصًا لك، زدنا إذعانًا لك، بمعنى: ثبّتنا على هذا الشأن حتّى نموت.

فلمّا طلبا القبول لأعمالهما، وَوَصفا الله أنّه سميع عليم، وأنّ هذه هي العلّة الّتي من أجلها طلبا ربّهما، فهما متأكّدان أنّه سميع عليم، يعلم صدق الطّالبين، وصدق انكسارهم وذلّهم؛ فكأنّهما أرادا بعد هذا العمل، أن يكون فاتحة خير لمزيد استسلام، ولمزيد خضوع، ولمزيد ذلّ، **فالنّفوس:**

- **تخشى** من الضّعف عن العمل ← قبل بَدْأ العمل فتخشى:
  - ✓ من التّهاون في العمل.
  - ✓ وقلّة الإقبال عليه.
- **وتخشى** ← بعد العمل أن يكون فاتنًا لها، تظنّ أنّها لـمّا عملته قد حصل منها ما لم يحصل من الأوّلين، وأنّها ضمنت مكانتها عند ربّ العالمين، فتتوانى عن الاستمرار في الاستسلام، ولذلك قالا: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ}.

نلاحظ نداءهما مرّة أخرى بِـ {رَبَّنَا} وسؤاله أن يجعلهم مسلِمَيْن، يعني: من الإسلام، وهو اسم الدّين الّذي هو من ربّ العالمين لكلّ الأنبياء، فإنّ اسم الإسلام عامّ لدين الله من إبراهيم عليه السّلام إلى محمّد صلّى الله عيه وسلّم، إلاّ أنّه اختُصَّ في الاطلاق بدين الرّسول صلّى الله عيه وسلّم.

وعلى ذلك يكون **اسم الإسلام له ثلاثة معاني:**

١. **الاسم العامّ:** بمعنى: الاستسلام، وهذا يكون اسمًا لدين الله لجميع الرّسل.
٢. **واسم الإسلام:** الّذي هو اسم خاصّ لدين النّبيّ صلّى الله عيه وسلّم.
٣. وأيضا يأتي الإسلام في دين النّبيّ صلّى الله عيه وسلّم **مقابلًا الإيمان**.

كما في حديث جبريل، أنّ النّبيّ صلّى الله عيه وسلّم سُئِلَ: ((.. **ما الإيمان؟.. ما الإسلام؟..**))[١٠]

[١] [صحيح البخاري _ كتاب الإيمان _ باب سؤال جبريل النّبيّ صلّى الله عيه وسلّم عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة _ حديث رقم ٥٠]

فله ثلاث إطلاقات، و الإطلاق العامّ هو الأصل، فإنّ كلّ الأديان الّتي جاءت من عند الله، اليهوديّة، والنّصرانيّة، في أصلها هي دين الإسلام، الاستسلام لله، ثم أخذت أسماءً على حسب أحوالها، وبقي دين النّبيّ صلّى الله عيه وسلّم على أصله، وهو دين الإسلام.

إذًا فهذا من معرفتهم بربّهم، أنّهما سألاه باسم _ الرّبّ _ وسألاه _ الإسلام _ الّذي هو أصل دين الله، وسألاه الثّبات والمزيد، فهذا من فقهها ومعرفة النّفوس، فكيف أظهروا الضّراعة إلى الله في هذا الشّأن؟ وسألا لأنفسهما وأيضًا سألا لذرّيّتهم، وقد مرّ معنا أنّ هذه النّفسيّة من أكثر النّفسيّات سواءً، فإنّها تحبّ انتشار الخير، فلا تحصره لنفسها، وإنّما تسأله لنفسها ولمن وراءها **{رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ}** فهذا السّؤال دَلَّ على نفس المقصود، وهو حبّ استمرار الإسلام، وسُئِلَ ذلك للذّرّيّة خاصّة لأنّهم أحقّ بالشّفقة، فلو حصل الصّلاح في ذرّيّة الأنبياء صلح بهم الأتباع، ولو حصل الصّلاح في ذرّيّة الأنبياء يحصل مضاعفة الأجور لوالديهم، ولآبائهم، لِمَا في هذا من استمرار للخير، فالأبناء والذّرّيّة بذرة للآباء من ثمرتها الشّيء الكثير.

وهذا يعلّمنا العناية بسؤال الله عزّ وجلّ للذّرّيّة الخير، ويعلّمنا كيف نرتّب أولوياتنا؟ وهذا ربّما أعظم شأن في المسألة، أنّه ما هو الْأَوْلَى؟ وما هو الأهمّ للذّرّيّة؟ الْأَوْلَى والأهمّ للذّرّيّة أن تكون مسلمة، مستسلمة لربّ العالمين، وانظر لإبراهيم عليه السّلام بالرّغم من مكانته في التّوحيد، فها هو في المقام العظيم مع ابنه ومع ذلك يسأل لنفسه ولذرّيّته التّوحيد والإسلام، فما قال: (بيئة جيّدة! وتربية جيّدة! وإذا كان رسولًا من عند الله فلابدّ أن تكون الذّرّيّة طيّبة!) إنّما الدّعاء الدّال على الاهتمام، فما يكون الدّعاء في مكان والاهتمامات في مكان آخر.

هذه الذّرّيّة لا بدّ أن تنشأ في بيئة تُشْعِرُهَا أنّ الهداية والاستسلام، والذُّلَّ، والخضوع لربّ العالمين شأن عظيم، لابدّ من الاهتمام به، والعناية به، والمحافظة عليه، ونقله لمن وراءه.

وها هو التّوحيد والإيمان قد بذل من قبلنا في إيصاله لنا، فلابدّ أن نبذل جهودنا في إيصال هذا الحقّ لمن بعدنا، لابدّ أن يشعروا بأنّ هذا هو غاية ما نُريد منهم، فليلًا ونهارًا نقول: الّذي يُرضينا أن تُصلّوا الصّلاة على وقتها، الّذي يُرضينا أن تقرؤوا كتاب الله، الّذي يُرضينا أن تُطيعوا الله، الّذي يُرضينا أن تبتعدوا عن معاصي الله، هذا الّذي يُرضينا.

ما يُرضينا أن تُحصّلوا من الدّنيا ما هو أصلًا مكتوب لكم! وما يحتاج أن نقول أنّ من أبنائنا من هو مهتمّ أصلًا بدنياه، وما يزيد كلامي عليه إلاّ زيادة قلق على الدّنيا! ومن أبنائنا من هو _ سبهللة _ لا هو في شأن الدّنيا ولا هو في شأن الآخرة!

وما يزيد كلامي عن الدّنيا عنده إلاّ زيادة ألم نفسيّ أنّه لم يحصّل شيئًا! وأنّه فاشل! وألاّ يعتني لا بالدّنيا! ولا بشأن الآخرة! يعني كيف نربّي أبناءنا على الإيمان بالله واليوم الآخر، ونحن نُظهر لهم باللّيل والنّهار أنّه أهمّ شيء الدّنيا وما تحصّل في الدّنيا!؟

هذا لا يعني إهمال تحصيلهم في الدّنيا إهمالا تامّا،

لكن التّوازن هنا معناه أن يرتفع ميزان الآخرة على ميزان الدّنيا.

فأنت ضع لها نصيبًا لكن وازن هذا النّصيب بأن تجعل أضعاف، أضعاف، هذا الاهتمام بالدّنيا يكون للآخرة؛ قل له: والله لا توجد لقمة هنا في الدّنيا مكتوبة لك يا ابني إلاّ ستصلك، لكن توكّل على الله، اعتمد على الله، تعلّق بالله، اسأل الله، الله يعيننا ويعينهم على ما ابْتُلِينَا به من الفتن، الله يعيننا ويعينهم على هذه الدّنيويّة الّتي قد سبحت فيها القلوب، حتّى كأنّها تظنّ أنّها بعيدة عنها، بينما هي في غَوْرِهَا.

على كلّ حال فهذا ما يريدانه لذرّيّتهما، فقالا: {وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ} هذا ما يريدانه.

معنى ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾:

{وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا} والمقصود من المناسك والله أعلم يعني: التّعبّدات، بمعني: عرّفنا كيف نعبدك؟ عرّفنا كيف تكون القُربى إليك؟ وكيف تكون طاعتك؟ سواء كان هذا المقصود به الأعمال، أو البِقاع، أو النّيّات، أو المقصود به السّلوكيات، فكلّ ما يتّصل بشأن طاعتك يا ربّ العالمين، أرنا إيّاه، علّمنا إيّاه، اجعله مرئيّا من قلوبنا كما يُرَى الشّيء من البصر، وهذا من عظيم فقههما العناية بالمناسك الّتي يسير فيها النّاسك إلى ربّه.

وهذه المناسك من العبادة، والتّقرّب إلى الله، ولزوم ما يرضيه، ما يَعْنَنِي بها إلاّ أهل التّوحيد، الّذين كلّ همّهم أن يصلوا إلى رضا ربّهم، ما يشغلهم شيء إلاّ {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}[1] الّذي يوصلنا إلى رضاك، علّمنا كيف نعبدك؟ أين نعبدك؟ بماذا نتقرّب منك؟ كيف نكون مقبولين عندك؟

فانظري للهموم، واذكري إبراهيم عليه السّلام وإسماعيل، واذكري همّهما في أن يتقبّلهما ربّهما وأن يُثبّتهما على الإسلام هما وذرّيّتهما، وأن يُرِيهُمَا الله مناسكهما، **فيرونها ببصيرة قلوبهما**، كما يرى المرء الشّمس بعينه، وهذا والله ما هو إلاّ بسبب الاهتمام، هذا هو أهمّ شيء أن يسأل العبد ربّه أن يبصره في كل مواقف الحياة:

[1] [الفاتحة: ٦]

- بصّرني مراضيك، أرني كيف أصل إلى رضاك؟
- في هذا الموقف ماذا أفعل لأرضيك؟
- مع هذا الشخص ماذا أفعل لأرضيك؟
- في هذا الزّمان ماذا أفعل لأرضيك؟

معنى {وَتُبْ عَلَيْنَا}:

ثمّ يأتي ما هو لازم؟ لازم من حال العبيد، لازم من حال المقصّرين، المفرّطين، لازم حتّى من حال ٱلْكُمَّل {وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} وهذه حال يَعْرِفُ فيها الإنسان عَظَمَةَ ربّه، وعظمة نَعْمَائِهِ، وعظمة فضله عليه، فيقول: {وَتُبْ عَلَيْنَا} فإنّ العبد وإن اجتهد في طاعة ربّه، فإنّه لابدّ من التّقصير، فلا ينفكّ عن التّقصير ولو في بعض ٱلْوُجُوهِ، فَمِنَ المُمْكِنِ أن يحصل منه السَّهو، وَيُمْكِنِ أن يحصل منه النّسيان، وَيُمْكِنِ أن يحصل منه ترك الأَوْلَى، وَيُمْكِنِ أن يحصل منه أحيانًا غلبة الهوى؛ فالدّعاء منهما عليهما السّلام لأجل هذا، طبعًا غلبة الهوى هذا شأننا نحن الضّعفاء، فالله عزّ وجلّ قوّى الأنبياء على هواهم، وصرف عنهم شياطينهم، ومع ذلك كان من دعائهما طلب التّوبة، فمعنى ذلك أنّ المرء مهما كان في يومه وليلته محسنًا، باذلًا الجهد، **فإنّ التّقصير من وصفه**، فلا ييأس من روح الله، ولا يطلب من نفسه الكمال بعد أن بذل الجد، **ولا يقع تضييق على النّفس حتى تملّ الطاعة**، إنّما الحل أن يطلب من الله أن يتوب عليه، يطلب من الله أن يغفر له، يطلب من الله أن يتمّم عليه عمله، فإنّ هذه التّوبة تمحو الزّلل، والخطأ، والتّقصير، فَيُكَمِّلُ الله عزّ وجلّ للعبد أجره في عمله، فإذًا معنى هذا أنّ الدّاعي يطلب من ربّه أن يوفّقه؛ كما يقول الشّيخ السّعدي: (**فيكون حاصل دعائهما، يرجع إلى التّوفيق للعلم النّافع، والعمل الصالح،**) هذا معنى {وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا} والأمر الثّاني يقول: (**ولمّا كان العبد – مهما كان – لا بدّ أن يعتريه التّقصير، ويحتاج إلى التّوبة قالا**: {وَتُبْ عَلَيْنَا}) فالتّقصير لابدّ منه.

ونرجع مرّة أخرى ونقول: انظروا إلى فِقْهِهِمَا، انظروا إلى معرفتهما لربّهما، {إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} فمهما بذلا جهودهما في الطّاعة، ومهما تمسّكا بطريقها، ومهما كان حالهما في الحرص عليها، لكنّهما مؤمنان بأنّ ربّهما توّاب رحيم، ما يردّ المنكسرين، الذّليلين، الباذلين الجهد، السّاعين إلى رضاه، الصّادقين في ذلك، المجاهدين لأنفسهم أن يتركوا لذّة الدّنيا وحلاوتها المُرَّةُ الّتي تَغِرُّ ٱلْغِرَّ، ولكنّهم مع ذلك ليسوا صرعى الدّنيا، وإن صرعتهم مرّة بذلوا جهودهم في الاستفاقة، والبعد عن التّعلّق بها، ويحصل منهم التّقصير، يصرعوا الدّنيا مَرَّةً وتصرعهم الدّنيا مَرَّةً، يُسْكِتُونَ أنفسهم مَرَّةً وتغلبهم نفوسهم مَرَّةً، لكنّهم مؤمنون بأنّ ربّهم توّاب رحيم، وهو السّميع العليم، الّذي يعلم الصّادقين من الكاذبين، **فكم يتمتّع العبد بمعرفة الرّبّ !**

ما يستطيعه الشّيطان، بل هو يسيّس نفسه ويسوسها حتّى يصل إلى ربّ العالمين، ويبذل ما يستطيع:

- **فإذا جاءته نفسه من جهة الرّياء**، حاربها بطلب القَبُولِ من ربّ العالمين، ومنع نفسه من التّفكير في غير الله، وبدأ يقول: {تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} تسمع نداءنا، ودعاءنا، وسؤالنا، وَتَعْلَمُ مُجَاهَدَتَنَا لأنفسنا، وحتّى لو أَخْطَأَتْ هذه النّفس، يثق المؤمن بأنّ ربّه توّاب رحيم، فيقول: {تُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}.
- **وحتّى لو أنّ النّفس أحسنت**، وصنعت، وأنجزت، وصلّت، وَعَبَدَتْ، بعد طَلَبِ القَبُولِ تقول {اجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ} أعنّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، ساعدنا يا ربّ العالمين على طاعتك، ٱلْمُطِيعُ مَنْ وَفَّقْتَهُ، ٱلْمُنْتَفِعُ مَنْ ثَبَّتَّهُ، اخْتِمْ لَنَا بِخَيْرٍ، اخْتِمْ لَنَا بِخَيْرٍ، اخْتِمْ لَنَا بِخَيْرٍ.

فهذه الحال من إبراهيم عليه السّلام وابنه إسماعيل هي حال ٱلْكُمَّل الّذين يعرفون مَنْ ربّهم؟ وما عظمته؟ وجلاه؟ وقربه وعنايته بخلقه؟

ثمّ إنّهما يسألان سؤالًا خاصّا لذرّيتهما وهو: أن يبعث الله {فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ} ووظيفة هذا الرّسول أنّه يتلو عليهم الآيات {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ}

ثمّ يختمان هذا الدّعاء {إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} وهذا الجزء من الدّعاء يستلزم منّا إفراده بالمناقشة فلهذا نؤجّل الكلام عن هذه الآية إلى لقائنا القادم بإذن الله.

بقي لنا دقائق نستفيد فيها من كلام الشّيخ العثيمين رحمه الله في معنى _ {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} _ نذكّر أنفسنا بهذه العبادة العظيمة، وهي _ عبادة الاستعانة _ خصوصًا في هذا الشّهر الكريم الّذي مادّته وأصله طلب العون من الله على الطّاعات والعبادات.

كلمة الشّيخ محمد بن صالح العثيمين:

({إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} وأظنّ أنّنا لسنا في المرتبة الأولى في هذا المقام؛ لأنّ النّاس في هذا المقام أربعة أقسام :

_ منهم من يعبد الله ويستعينه.

_ ومنهم من لا يعبد الله ولا يستعينه.

_ ومنهم من يُغَلِّبُ جانب الاستعانة.

[١] [الفاتحة: ٥]

_ ومنهم من يُغَلِّبُ جانب العبادة.

وأعلى المراتب الأولى؛ أن تجمع بين العبادة والاستعانة.

ولننظر في حالنا الآن _ وأنا أتكلّم عن حالي _ دائمًا نُغَلِّبُ جانب العبادة، تجد الإنسان يتوضّأ وليس في نفسه شعور أن يستعين الله على وضوئه، ويصلّي وليس في نفسه شعور أنّه يستعين الله على الصّلاة، وأنّه إن لم يعنه لم يصلّ.

وفي الحقيقة نحن في غفلة عن هذا، مع أنّ الاستعانة نفسها عبادة، فإذا صلّيت مثلاً وشعرت أنّك تصلّي لكن بمعونة الله، وأنّه لولا معونة الله ما صلّيت، وأنّك مُفْتَقِرٌ أيضًا إلى الله أن يعينك حتّى تصلّي وتتمّ الصّلاة؛ حَصَّلْتَ عبادتين: الصّلاة والاستعانة.

فأكثر عباد الله – فيما أظنّ: والعلم عند الله – يُغَلِّبُونَ جانب العبادة، فتراهم يُغَلِّبُونَ جانب العبادة ويستعينون بالله في الشّدائد، فحينئذ يقول أحدهم: اللّهم أعنّي، لكن في حال الرّخاء تكون الاستعانة بالله قليلة من أكثر النّاس!)

نسأل الله عزّ وجلّ بمنّه وكرمه أن يجعلنا ممّن استعان به على الطّاعات، واستعان به على ترك المعاصي، واستعان به على الصّبر على الأقدار، واستعان به في كلّ شأنه، اللّهمّ آمين.

سبحانك اللّهمّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلاّ أنت أستغفرك وأتوب إليك.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

[1] شرح الأصول من علم الأصول _ لفضيلة الشّيخ العلاّمة محمد بن صالح العثيمين _ (ط. ابن الجوزي) صفحة ١٩٩.